مجلة
كلية البنات الأزهرية بالعاشر
من رمضان

قراءةٌ في عتباتِ المُصنَّفاتِ العرَبيَّةِ
(الصَّاحِبيُّ) لابنِ فارسٍ (٣٩٥هـ) أُنموذجًا

إعداد الأستاذ الدكتور

عصام فاروق إمام

أستاذ أصول اللغة بالكلية

والوكيل السابق لكلية العلوم الإسلامية والعربية للوافدين

جامعة الأزهر

العدد التاسع ديسمبر ٢٠٢٤ م

الترقيم الدولي (٣٦٠٧-٢٦٣٦)

الترقيم الدولي الإلكتروني(٣٦١٥-٢٦٣٦)

رقم الإيداع بدار الكتب (٢٠٢٤/٢٤٣٢٩)

قراءةٌ في عتباتِ المُصنَّفاتِ العرَبيَّةِ
(الصَّاحِبيُّ) لابنِ فارسٍ (٣٩٥هـ) أُنموذجًا

ملخص البحث:

يقف هذا البحث أمام ما سميتُه (عَتبات المصنَّفات) وأقصد بها ما تُصدّر به من عنواناتٍ ومقدماتٍ، وما يتخللها من عنواناتِ الأبوابِ والمباحثِ والقضايا المكوِّنة لهيكلِه، وما تحمله هذه العتباتُ من دلالاتٍ كاشفةٍ عن مضمون المؤلَّف وكذا تُوقِفُك على جزءٍ مهمٍ من معماريته، وعبقرية بنائه، وتوليفه، وعلى جزءٍ – أيضًا– من عبقرية المؤلِّف نفسِه، واكتناه أسلوبه، وسَبْرِ أغوارِ منهجه العلمي.

ويُطبِّق البحثُ هذا كلَّه – هنا– على مصنَّف من أهم مصنَّفات (فقه اللغة العربية)، وهو كتاب (الصَّاحِبيُّ) لأحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، مُعرِّفًا أولًا بالكتاب وصاحبِه، محاولًا تحليل عنوان الكتاب، واقفًا أمام مُقدمتِه موضحًا ما تشتمل عليه من نقاطٍ مهمةٍ، متجاوزًا ذلك إلى عنوانات أبواب الكتاب، مُبينًا خصائصَها ودلالاتِها.

ومن أهم النتائج التي خرج بها البحث:

– أدى عنوان (الصَّاحِبيّ) الوظيفة المرجعية (الإحالية) بإحالته إلى أحد المجالات المعرفية، ذلك المجال الذي شكَّل عِلمًا من العلوم عُرِف فيما بعد بـ(فقه اللغة).

– اشتملتْ مقدمة (الصَّاحِبيّ) على كثير من الرؤوس التي جرتْ العادة على ذِكْر المصنِّفين لها في صَدْرِ كتبهم.

– ينطلق ابن فارس في عنونة أبواب كتابه من النظرة اللغوية المحضة، بعيدًا عن التأثر بعِلم الكلام والمنطق وغيرهما من العلوم المعتمِدة بشكلٍ كبيرٍ على العقل والتعليل.

– تَأثُر ابنِ فارس في صياغةِ عنوانات أبوابه بالعديد من المجالات المعرفية، لتدل على موسوعية الرجل من جانب وإيلائه مبدأ تكامل العلوم أهمية كبرى من جانب آخر.

– تأثر العديد من العلماء اللاحقين على ابن فارس به في صياغة العديد من عنوانات أبواب كتبهم، كالثعالبي في (فقه اللغة وأسرار العربية)، والسيوطي في (المزهر).
– اعتمد ابن فارس في صياغة عنوانات أبواب كتابه على الدقة والتشويق في الآن ذاته، مستعملا بعض الأساليب، كالعنونة الاستفهامية، والخبرية، مع التفاوت في العنوانات بين الإطالة والإيجاز، والاعتماد على التقابل اللفظي.

الكلمات المفتاحية: فقه، اللغة، الصاحبي، ابن فارس، العتبات.

A Reading in the Thresholds of Arabic Compilations: *As-Ṣaḥibi* by Ibn Fâris (٣٩٥ AH) as a Model

Abstract

This study explores the term "thresholds of compilations," referring to titles, introductions, chapter headings, sections, and issues that structure the work. These thresholds reveal insights into the content, design, genius construction, style of the author, and delve into its scientific approach. The study applies these concepts to one of the most significant works in Arabic philology: *As-Ṣaḥibi* by Ahmad Ibn Fâris (٣٩٥ AH). It begins by introducing the book and its author, analyzing the book's title, and examining its introduction to highlight significant points. The study then shifts to the chapter headings of the book, discussing their characteristics and meanings. Key findings include the referential function of the title *As-Ṣaḥibi*, indicating the field of Arabic philology; the inclusion of traditional points in the introduction, typical of authors of that era; the purely linguistic perspective of

the chapter titles, free from theological and logical influences; the influence of various fields of knowledge on Ibn Fâris's titles of chapter, reflecting his comprehensive knowledge and the importance he placed on the integration of sciences; and the impact of Ibn Fâris on subsequent scholars, such as Al-Thâ'alibi in *Fiqh al-Lugha* and Al-Ṣuyuṭi in *Al-Muzhir*. Ibn Fâris's titles are noted for their precision and appeal, employing various styles such as interrogative and declarative titles, varying between length and brevity, often relying on verbal contrasts.

Keywords: Arabic Philology, As-Ṣaḥibi, Ibn Fâris, Thresholds.

مقدمة

ممَّا هو لِزامٌ على المطلعين على المؤلَّفات والمصنَّفات الوقوفُ أمام أمرين لا غنى عنهما: (المفاتيح) و(العتبات). فأما (المفاتيح) فهي مصطلحات العِلْم أو الكتاب نفسِه التي تفتح مغاليقَه أمام قارئيه، وقد تُظهِر لهم مقصدَ المؤلِّف، ومذهبَه النحوي، والعقدي، والفكري، الكامنَ خلف تلك المصطلحات وانتماءاتها المذهبية. وأما (العتبات) فتلك الأمور التي يضعها المؤلِّف بين يدي مؤلَّفه- أو مصنَّفه- لتكون منارةً مضيئةً تهدي القراءَ إلى انتماء المؤلَّف المعرفيّ، وبعض مقاصد المؤلِّف العامة من وراء تأليفه، وكذا مصادره، ومنهجه، وغيرها.

وامتدادًا لما رسمتُه لنفسي من منهجية في قراءة المصنفاتِ العربيَّةِ، اللغويَّةِ منها على وجه الخصوص[(١)] ، فأضع بين يدي قارئي الكريم حديثًا عما سميته بـ(عتبات المصنَّفات) مجاراةً لما استقر في المجال الأدبي والنقدي من مصطلح عُرف واشتُهر بـ(عتبات النص)، وأقصد بـ(عتبات المصنَّفات) ما يُصدَّر بها من عنواناتٍ ومقدماتٍ، وما يتخللها من عنوانات الأبواب والمباحث والقضايا المكونة لهيكله، وما تحمله هذه العتباتُ من دلالاتٍ كاشفةٍ عن مضمون المؤلَّف وكذا تُوقِفُك على جزءٍ مهمٍ من معماريته،وعبقرية بنائه، وتوليفه، وكذا على جزءٍ من عبقرية المؤلِّف نفسِه، واكتناه أسلوبه، وسبر أغوار منهجه العلمي.

ولفهم بعض أسرار معمارية كتاب (الصاحبي) وشخصية الإمام ابن فارس فيه سأقف أمام عتباته الثلاث:

---

١) كتبتُ من قبل مقالات (كتاب الخصائص للإمام ابن جني وقفات أمام العتبات) نشرت على أجزاء في مجلة الأزهر من أول عدد شعبان ١٤٤٢هـ، وكذلك طبقتها في بحث (قضايا الدلالة في كتاب الملمع للحسين بن علي النمري دراسة تحليلية) وهو منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط العدد التاسع والثلاثون- الإصدار الثاني- الجزء الأول لعام ١٤٤٢هـ- ٢٠٢٠م.

الأولى، العنوان الذي وضعه عالِمُنا عَلَمًا على كتابه، وهو أول ما يصادفنا عند مطالعته ودَرْسِه.

والثانية، القائمة على المقدِّمة التي صدَّر بها كتابه.

والثالثة، عنوانات الأبواب التي بنى عليها ابنُ فارس مؤلَّفه.

وقبل البدء في الحديث عن هذه العتبات أرى من الضروري أيضًا الوقوف مع الإمام ابن فارس ومؤلَّفه؛ للتعرف على تكوين ثقافته، ومذاهبه، وبعضٍ من المعلومات المهمَّة التي تُوقِفُنا على ملامح هذه الشخصية الشهيرة في الدرس اللغوي العربي القديم، والأسباب وراء ما تبوأه (الصاحبي) من منزلة في تراثنا العربي.

❁ ❁ ❁

مدخل: ابن فارس ومؤلَّفه

فأما صاحبُنا فهو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي[١] ، وكغيره كثير من اللغويين ((لم تعرف سنة ولادته، كما لم يعرف على القطع موطنه الأصلي)) [٢] لكنه عاش بهمذان، ورحل إلى أماكن عديدة كما روتْ كتبُ التراجم، وتبدو في مجملها رحلات علمية، فقصد ((قزوين إلى أبي الحسن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن سلمة بن فخر.. فأقام هنالك مدة، ورحل إلى زنجان إلى أبي بكر بن الحسن بن الخطيب راوية ثعلب، ورحل إلى ميانج)) [٣]

ومما يدل عليه ذلك الترحال همةُ ابن فارس القوية في طلب العلم، وشحذ نفسه في المضي قدمًا في تحصيله، مهما تباعدت الأصقاع وتعددت الأنحاء، ومن الواضح أن نفس ابن فارس من النفوس الكبار التي أرهقت أجسام أصحابها في سبيل الوصول إلى مرادها، للدرجة التي تجعل صاحبها ينتقل من مذهبه ومذهب أبيه الفقهي الشافعي، وهو شيخ كبير، لا لشيء إلا لإحياء علم الإمام مالكٍ في مستقره الأخير(الري) ونفعها بهذا المذهب الذي يبدو أنه كان غائبًا عنها غيابًا واضحًا، فقد ورد أنه ((انتقل إلى مذهب مالك في آخر أمره، فسئل عن ذلك، فقال: دخلتني الحمية لهذا الإمام المقبول على جميع الألسنة، أن يخلو مثل هذا البلد –

---

١) ينظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (٤٦٣/٣)، لأبي منصور الثعالبي، تح: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية- بيروت، ط أولى، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء (٢٣٥) لأبي البركات ابن الأنباري، تح: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار- الأردن، ط ثالثة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .

٢) مقدمة السيد أحمد صقر في تحقيق الصاحبي (٤) لابن فارس، مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة.

٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٣٠/١) للقفطي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، ط أولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

يعني الرَّي- عن مذهبه فعمرت مشهد الانتساب إليه، حتي يكمل لهذا البلد فخره، فإن الري أجمع البلاد للمقالات والاختلافات في المذاهب على تضادها وكثرتها.)) [١]

أضف إلى ذلك العديد من الأسباب التي توافرت لابن فارس لتجعل منه واحدًا من رواد الحضارة العربية، منها: انتماؤه إلى بيت من بيوتات العلم، حيث كان أبوه فقيهًا، شافعيًّا، لغويًّا، ولعله أول من أخذ عنه أبو الحسين، وكان من مصادره التي نقل عنها في كتبه، يقول: ((سمعتُ أبي يقول: سمعتُ محمد بن عبد الواحد يقول: سمعت ثعلبًا يقول: إذا نتج ولد الناقة في الربيع، ومضت عليه أيام، فهو (رُبَع)، فإذا نتج في الصيف فهو (هُبَع)، فإذا نتج بين الصيف والربيع فهو (بُعّة))) [٢]

ولا شك أن ظاهرة بيوتات العلم تركت آثارًا جليةً ومهمةً في الحياة العلمية عند العرب، وأسهمتْ إسهامًا واضحًا في رقيها، وأضافتْ إلى تراثنا الخالد رصيدًا لا تخطئه عينُ بصيرٍ.

ولم يكن ابنُ فارس يسير على خطى الخليل بن أحمد الفراهيدي في طريق دراسة اللغة وجمع ألفاظها فحسب، وإنما تابَعه أيضًا في كرمه وزهده، فقد كان ((كريمًا، جوادًا، فربما وهب السائل ثيابَه، وفرشَ بيتِه)) [٣] وهكذا كان دأب الكثير من علماء الأمة ممن رأوا في كثرة المال وعدم التصدق بها إفسادًا للقلب وإشغالًا للعقل، مما هم في غنى عنه، وذلك لصلاح قلوبهم بالعلم وانشغالهم بدرسه وتدريسه وتبليغه.

---

١) نزهة الألباء (٢٣٦).

٢) ينظر: السابق الصفحة نفسها.

٣) السابق الصفحة نفسها.

وقد ترك ابن فارس مصنفاتٍ مكتوبةً، ذات صيت واسع، وبحسبك أن تذكر له: (مقاييس اللغة)، و(المجمل في اللغة)، و(الإتباع والمزاوجة)، و(حلية الفقهاء)، و(متخير الألفاظ)، و(مأخذ العلم)، و(فتيا فقيه العرب)، وغيرها.

كما ترك آثارًا بشريةً هم تلامذته النجباء من أمثال: أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمذاني (٣٩٥هـ) صاحب المقامات الشهيرة، والصاحب إسماعيل بن عباد (٣٨٥هـ) صاحب (المحيط في اللغة).

وقدَّر اللهُ لابن فارس أن يختم حياته برحلةٍ علميَّةٍ أخرى مُعلمًا هذه المرة، فقد حُمِل إلى الري في أواخر عمره ليقرأ عليه أبو طالب بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي.[١] وهناك لبى نداء ربه سنة خمس وتسعين وثلاث مئة، ودُفن مقابل مشهد قاضي القضاة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني (٣٩٢هـ)[٢].

وأما كتاب (الصاحبي) فلم يكن أقلَّ شهرةٍ من صاحبِه، فقد ذاع صيته وتلقفه الناس وتلقوه بالقبول، ونقل عنه كثيرون ممن تحدثوا في مسائل فقه اللغة من أمثال: الثعالبي (٤٢٩هـ)، والسيوطي (٩١١هـ) وغيرهما، فهو بحق من أمهات الكتب المصنَّفة في هذا الباب، والحائزة السبق في هذا المضمار.

❁ ❁ ❁

١) ينظر: السابق الصفحة نفسها.

٢) ينظر: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٤١٦/١)، ياقوت الحموي، تح: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط أولى، ١٩٩٣م.

العتبة الأولى: عنوان الكتاب

قد يعتقد بعضهم أن العنوان مجرد كلمةٍ أو كلماتٍ يختارها المؤلِّف أو المصنِّف ليصدر بها كتابه، تحت داعي الإغراء بقراءته، أو التشويق لما في داخله، أو أنَّ اختياره جاء بطريقةٍ عشوائيةٍ حسبما اتفق، غير منتبهين إلى أنَّ العنوان يحمل من الشحنات النفسية، والفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والعقلية، واللغوية للمؤلِّف، بقدر قد لا يكون هو نفسه واعيًا لعمل العقل القسري عند هذه العملية المضنية من الاختيار.

ولا يخلو وضع العنونة في كثيرٍ من الأحيان من معاناة يجدها بعض المؤلِّفين في رحلة اختيار العنوان الذي يراه مناسبًا ليوضع على صدارة كتابه، مشكلًا بذلك عتبةً مهمةً ومدخلًا أساسًا لما يريد أن يوصله للقارئ من معلوماتٍ ومذاهبَ ورؤى، مضافًا إليها رؤيته الشخصية لكثير من القضايا المثارة عند أسلافه أو معاصريه، ليدلو بدلائه فيها، مشكلًا بذلك جزءًا من حلقةٍ من حلقات الفكر الإنساني.

وقبل الوقوف أمام عنوان كتابنا – موضع الدراسة– فلابد من التنبيه على تعدد هذا العنوان بتعدد دور النشر التي أخرجته والمحققين الذين عنوا به، وذلك على النحو التالي:

- في طبعة عيسى البابي الحلبي، تحقيق: السيد أحمد صقر ورد بعنوان (الصاحبي).
- في طبعة المكتبة السلفية المنشورة عام ١٣٢٨هـ– ١٩١٠م وكذلك طبعة د. مصطفى الشويمي بتحقيقه– بيروت ١٣٨٣هـ– ١٩٦٤م ورد بعنوان: (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها).
- في طبعة مكتبة المعارف– بيروت، تحقيق: د. عمر فاروق الطباع، ط أولى، عام ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م ورد بعنوان: (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها).

وسأعتمد في تحليل العنوان– فحسب– على نسخة د. عمر الطباع؛ لأمرين:

الأول: أنه العنوان الذي صدر به ابن فارس مقدمة كتابه- ولا اختلاف في ذلك بين الطبعات كلها- وذلك في قوله: ((هذا الكتابُ؛ الصاحبيُّ في فقه اللغة العربية وسَنَن العرب في كلامها)) (١)

الثاني: أنه شامل لعنواني المكتبة السلفية والبابي الحلبي ويزيد عليهما قيد (العربية) في وصف (اللغة) ولهذا أهميته في التحليل. بينما سأعتمد في بقية التحليل على الطبعة التي حققها الأستاذ السيد أحمد صقر؛ لكونها في نظري أصح النسخ وأضبطها.

وعند الوقوف أمام عنوان: (الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها) أجدني أمام أربعة من الأمور أراها مهمةً للكشف عن مكنوناته، وتفريغ تلك الشحنة الفكرية الكامنة خلفه أمام القارئ الكريم، وهي قراءةٌ لا تخلو من الاجتهاد، فلعل القارئ يرى ما لا أرى، أو يذهب بعيدًا عما أذهب، ولا مشاحة في القراءات الاجتهادية كما أرى.

أولًا- وظيفة العنوان:

عندما يختار المؤلِّف أو المصنِّف من مفردات اللغة الكثيرة عنوانًا معينًا، يصوغه صياغةً خاصةً، لابد أن هناك وظيفةً أو عدة وظائف يؤديها ذلك العنوان، تتناسب مع الفئة المستهدفة من وراء ذلك التأليف، وكذلك المجال الذي يكتب فيه المؤلِّف، هل هو مجال أدبي يسيح في عالم من الخيال ويستخدم فيه المجاز واللعب بالألفاظ أو هو مجال علمي منضبط يقتضي الالتزام بالحقائق العلمية لا في داخل المؤلَّف فحسب وإنما ينطبع ذلك الالتزام على العنوان أيضا.

١) ينظر: طبعة المكتبة السلفية (٢)، وطبعة عيسى البابي الحلبي (٣)، وطبعة مكتبة المعارف (٣٣).

ومن هنا فقد ذكر بعضهم وظائف عديدة للعنونة، منها **الوظيفة الإغرائية أو التأثيرية** التي تعمل على إسباغ التشويق والإثارة على العنوان لجذب القارئ ومحاولة التأثير عليه في قراءة المؤلف واقتنائه، ومن المعروف الآن أن هناك عنوانات تجارية، قد يفرضها بعض الناشرين على المؤلفين، حتى يستطيع ترويج الكتاب وجعل عنوانه مناسبا للسوق الشرائية.

وقد وقع هذا النوع من العنوانات تحت طائلة سهام النقد، من حديث عدم دلالة العنوان على ما يحمله الكتاب من مادةٍ علميةٍ، ومن تلك السهام ما ورد عند مصطفى لطفي المنفلوطي (١٩٢٤هـ) في مؤلَّفه (النظرات) تحت عنوان (خداع العناوين) وذلك في قوله:((لقد جهل الذين قالوا: إن الكتاب يعرف بعنوانه، فإني لم أرَ بين كتب التاريخ أكذب من كتاب (بدائع الزهور) ولا أعذب من عنوانه، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب (جواهر الأدب) ولا أرقَّ من اسمه..)) [(١)]

ومن وظائف العنونة أيضًا **الوظيفة المرجعية (الإحالية)** التي تحيل إلى مجال من المجالات المعرفية أو علم من العلوم، أو قضية من القضايا ذات الشأن.

وتتسم تلك الوظيفة بالمعرفية والموضوعية، أي لا وجود للعاطفة والذاتية فيها مما قد تتسم به بعض الكتب الأدبية أو الدواوين الشعرية أو الأعمال الإبداعية التي تستدعي جذب القارئ والتأثير عليه وجدانيا. [(٢)]

---

١) النظرات (٢/٢٤٧) مصطفى لطفي المنفلوطي، مؤسسة هنداوي، ٢١٠٩م.

٢) ينظر: السيميوطيقا والعنونة (١٠١) د. جميل حمداوي، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، يناير/ مارس ١٩٩٧م، واللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة- دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، (١٠٥) د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط أولى ٢٠٠٩م.

وتعد هذه الوظيفة الأخيرة الأنسبَ لعنوان الكتاب الذي بين أيدينا، فهو يحيل إلى مجال من المجالات اللغوية المهمة التي تقع في بؤرة اهتمام المؤلِّف، ذلك المجال الذي شكَّل عِلمًا من العلوم عُرِف فيما بعدُ بـ(فقه اللغة).

ولأهمية الإحالة إلى مجال (فقه اللغة) من جانب، وامتياز هذه التسمية وفرادتها من جانب آخر فقد اقتصر بعض أصحاب كتب الطبقات على مصطلح (فقه اللغة) عنوانا للكتاب، فقد سماه بهذا الاسم الفيروزآبادي في البلغة[١]، وكذا فعل صاحب (نزهة الألباء)[٢]، والسيوطي في مقدمة (المزهر)[٣].

إذن، فالصاحبي كتاب لغوي يحمل نقلًا صادقًا عن عديدٍ من اللغويين والنحويين من أمثال: سيبويه (١٨٠هـ)، والفراء (٢٠٧هـ)، والمبرد (٢٨٦هـ)، وأبي زيد (٢١٥هـ)، والأصمعي (٢١٦هـ).. وغيرهم.

ومن الواضح أن كلمة (فقه) تشير إلى درجةٍ مطلوبةٍ في تناول العلم موضع الدراسة، أو تأثر من ابن فارس- وكان أبوه فقيهًا شافعيًّا- بعلم الفقه، وله رسالة لغوية- فقهية عنونها بـ(فتيا فقيه العرب). بينما تشير كلمة (اللغة) إلى مجال من مجالات المعرفة، ويأتي قيد (العربية) ليدل على تناول قضايا خاصة بتلك اللغة، معبرة عن طرق العرب في التعبير بها.

ويظهر لنا عند مطالعة عنوانات مؤلَّفات ابن فارس أنه اعتمد كثيرًا على الوظيفة الإحالية في وضع تلك العنوانات، فأحال إلى علم أصول الفقه إحالةً مباشرةً في تسمية كتابه (أصول الفقه)، وإلى علم التفسير في تسمية كتابه: (جامع التأويل في تفسير القرآن)، وإلى مجال

١) ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (٨٠) الفيروزآبادي، تح. محمد المصري، دار سعد الدين للطباعة والنشر- دمشق، ط أولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
٢) ينظر: (ص ٢٦٣).
٣) ينظر: (٤/١).

المعاجم في عنونة معجميه: (المجمل في اللغة)، و(مقاييس اللغة)، وإلى النحو في (المحصل في النحو)، وكذا في مقدماته لبعض العلوم، في مثل تسمية كتابيه: (مقدمة في الفرائض)، و(مقدمة في النحو). (١)

ثانيًا– عنوان الكتاب بين معياري العمق والامتداد:

إن الباحث عن العمق التراثي لعنوان الكتاب – موضع الدراسة– لا يكاد يظفر بتسمية سابقة تحوي مفرداتها خصوصا كلمة (الصاحبي)، وكذا المركب الإضافي: (فقه اللغة العربية) في مؤلفات أو مصنفات السابقين على ابن فارس.

ويكفيك مطالعة كتب المؤلَّفات العربية من مثل: (كشف الظنون)، أو (تاريخ الأدب العربي)، أو غيرهما لتقف على عدم هذا السبق بنفسك. ومن الشهير الآن أن هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها مصطلح (فقه اللغة) في عنوان من عنوانات مؤلفات التراث العربي. (٢)

هذا من ناحية العمقِ، أما من ناحية الامتداد والتأثير الذي أحدثه هذا العنوانُ فيما تلاه من مؤلفاتٍ، فمن الواضح أنَّ الثعالبيَّ تأثَّر بعنوان ابن فارسٍ، فاختار منه (فقه اللغة)؛ ليصَدِّر به عنوانَ كتابه، وحثَّه على ذلك القربُ بين الكتابين في الموضوع، وإنْ كان لكلٍّ منهما منهجيتُه التي اختطها لكتابه.

ومما يدل على ذلك التأثرِ فضلًا عن التشابه المذكور في القيد السابق أنَّ (الصاحبي) من المصادر التي اعتمد عليها الثعالبيُّ في كتابه، يقول: ((وتُركتُ والأدبَ والكتبَ، أنتقي منها وأنتخب، وأفصِّل وأرتِّب، وأنتجع من الأئمة مثل: الخليل، والأصمعي، وأبي عمر الشيباني...

١) ينظر: مقدمة تحقيق المذكر والمؤنث (١٧ وما بعدها)، لابن فارس، تح: د. رمضان عبد التواب، القاهرة، ط أولى، ١٩٦٩م.

٢) ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية (٤١) د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية– الإسكندرية، ١٩٩٣م.

ومَن سواهم مِن ظرفاء الأدب الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء إلى إتقان العلماء، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة، كالصَّاحب أبي القاسم.. وأبي الحسين أحمد بن فارس..)) [١]

بل إنَّ الثعالبيَّ ((نقل عنه أبوابًا بأكملها لم يغير عناوينها ولا المادة التي تحتويها، من مثل: باب إضافة الشيء إلى ما ليس له لكن أضيف إليه لاتصاله به.. وفصل الإشباع والتوكيد.. وفصل في النحت..)) [٢]

ولا يقف هذا التأثيرُ على اختيار العنوان ليكون هو أو أحدُ أجزائه عنوانًا على كتابٍ لاحقٍ، وإنَّما تعدى ذلك إلى استثمار مصطلح (فقه اللغة) هذا للدلالة على عِلْمٍ من العلوم اللغوية. يقول د. عبده الراجحي: ((والذي لاشك فيه أنَّ التسمية- التي اختارها ابنُ فارس، والتي تابعه فيها الثعالبيُّ - هي التي أوحتْ إلى المحدثين استعمال (فقه اللغة) في مقابل اللفظة الأوربية philology على خلاف في المنهج بين الاستعماليين الغربيين واستعمال العرب، فضلًا عن الغموض الذي أحاط المصطلح..)) [٣]

وسيظل مصطلحُ (فقه اللغة) هكذا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا باسم كتاب (الصاحبي)، بل باسم مؤلِّفه - عليه سحائب الرحمات- ما بقي هذا المصطلح مستخدمًا في المجال اللغوي.

---

١) فقه اللغة وأسرار العربية (٣٧، ٣٨) الثعالبي، تح: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- بيروت، ط ثانية، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٢) السابق (٤٨).

٣) السابق (٤١).

ثالثًا– تركيب العنوان:

يمتاز عنوانُ كتاب (الصاحبي) بالطول النسبي؛ بناءً على مقارنته بالعنوانات التي أوردها مترجمو سيرته لمؤلَّفاته ومصنَّفاته الأخرى التي امتازت في معظمها بالإيجاز وعدم الإطالة، فنجد منها:

- العنوان المشتمل على كلمةٍ واحدةٍ، من مثل: (الأفراد، والأمالي، واليشكريات، الفَرْق).
- العنوان المشتمل على كلمتين بالإضافة، من مثل: (أبيات الاستشهاد، ومتخير الألفاظ، ومقاييس اللغة)، أو بالإسناد، من مثل: (الانتصار لثعلب) أو بالعطف، من مثل: (الإتباع والمزاوجة، والعم والخال).
- العنوانُ المشتملُ على ثلاثِ كلماتٍ، من مثل: (غريب إعراب القرآن، والمجمل في اللغة).

ويأتي العنوانُ المشتملُ على أكثر من ثلاثِ كلماتٍ أقلَ من الأنواع السابق بيانها، ومن ذلك: (قصص النهار وسمر الليل– ومقالة كلا وما جاء منها في كتاب الله).

ويبدو أنَّ السببَ وراء الطول النسبي لعنوان (الصاحبي) – بحسب المقارنات بالعنوانات الأخرى لديه– هو إرادة ابن فارس أن يشتمل عنوانه على الموضوعات الكلية التي سيتناولها الكتابُ، أعني جانبي: (فقه اللغة العربية) و(سنن العرب في كلامها)، بالإضافة إلى ما يدل على إهدائه إلى الصاحب بن عباد، وما يحمل كل واحد من هذه القيود من دلالات بحسب ما سأورد في العنصر الآتي:

رابعًا– دلالات العنوان:

إذا توقفنا أمام القيود الثلاثة المكونة لعنوان هذا الكتاب وجدنا دلالاتها على النحو الآتي:

القيد الأول: كلمة (الصاحبي)، وسبب البدء بهذه الكلمة أنَّه ألَّف هذا الكتابَ للصاحب بن عباد– وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه– ووضعه في خزانته، وكان بين ابنِ فارسٍ

والصاحبِ علاقةٌ وطيدة فالصاحب تلميذه، ذَكَرَ ابنُ الأنباري في ترجمة الصاحب بن عباد أنه ((أخذ عن أبي الحسين أحمد بن فارس، وأبي الفضل بن العميد.)) [١] وكان الصاحب يكرم ابنَ فارس ويقدره حقَّ قدره، ويقول: ((شيخنا أبو الحسين ممن رُزِق حُسنَ التصنيف، وأمن فيه من التصحيف)) [٢]

ولم يكن (الصاحبي) الكتابَ الوحيدَ الذي أهداه ابنُ فارس للصاحبِ، يذكر القفطي (٦٢٤هـ) أنه ((لما صنّف للصاحب كتاب (الحجر) وسيّره إليه في وزارته، قال: ردّوا الحجر من حيث جاء، وأمر له بجائزة ليست سنية)) [٣]

وقد ذكر ابن فارس سبب هذه التسمية في المقدمة بقوله: ((وإنما عنونته بهذا الاسم؛ لأني لما ألفته أودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة- عَمَرَ الله عراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره- تجملًا بذلك وتحسنًا، إذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضيًّا مقبولًا، وما يرذله أو ينفيه منفيًّا مرذولًا.)) [٤]

ويوضح أستاذُنا د. أمين فاخر سر هذه النسبة وطريقتها في عنونة الكتب قائلًا: ((وقد كان من عادة بعض العلماء في هذا العصر (عصر الدولة البويهية) حينما يؤلفون كتبهم ليهدوها إلى الأمراء والوزراء أن ينسبوها إليهم، فنجد مثلًا أبا إسحاق الصابي يؤلف لتاج الدولة بن عضد الدولة كتابَ: (التاجي في أخبار آل بويه)، ويؤلف علي بن العباس لعضد الدولة كتابًا في الطب يسميه: (العضدي في الطب)، وسمَّى أبو النصر محمد بن عبد الجبار

---

١) نزهة الألباء (٢٣٨).
٢) معجم الأدباء (١/٤١١).
٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة (١٢٨).
٤) الصاحبي (٣).

العقبي كتابَه: (اليميني) نسبةً إلى يمين الدولة. فلا عجب إذن في أن نجد ابن فارس يسمي هذا الكتاب باسم من يهديه إليه من الوزراء، وهو الصاحب ابن عباد)) [١]

القيد الثاني: المركب الإضافي (فقه اللغة العربية):

سبق أن أوردنا أنَّ هذه هي المرة الأولى التي يُعنون فيها كتاب بـ(فقه اللغة)، ويرى د. عبده الراجحي أنَّ وضع هذا التسمية كان نتاجَ العقليةِ الفقهيةِ للرجل، والعلاقات البينية الجامعة بين علوم العربية والفقه بمنظوره الشرعي، فيقول: ((وأغلب الظن عندنا أن هذا العنوان مأخوذ من الفقه بمعناه الاصطلاحي وبمعناه اللغوي، فلقد كان الرجلُ فقيهًا قدَّم أكثرَ من كتاب في الفقه، فضلًا عن الصلة التي كان يراها ابنُ فارس وغيره من اللغويين العرب بين اللغة والدين على العموم، وبينها وبين الفقه على وجه الخصوص.)) [٢]

وكذلك يقول: ((ومما يلفت النظر أنَّ ابن فارس الذي ألَّف كتابًا عنوانه (فتيا فقيه العرب) هو الذي يُؤرَّخ به اصطلاح (فقه اللغة) في الدرس العربي، والراجح عندنا أنه كان ينظر – عند التسمية– إلى مصطلح الفقه، خاصةً أنه قرنه بسنن العرب في مجاري كلامها..)) [٣]

لكن ماذا يقصد بفقه اللغة؟

((لعله يقصد بفقه اللغة القضايا العامة التي تخضع لها حياة اللغة)) [٤] مما صدَّر به ابنُ فارس كتابَه، كالأبواب التالية:

- باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟

---

١) دراسات لغوية في الصاحبي والخصائص والمزهر (٣٠) د. أمين فاخر، ط ثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٢) فقه اللغة في الكتب العربية (٤٢).

٣) السابق (١٧٥).

٤) فقه اللغة في الكتب العربية (٤٣، ٤٤).

- باب القول على الخط العربي وأول من كتب به.
- باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها... إلخ.

ومن الواضح أن فقه اللغة بهذا المفهوم يختلف عنه عند الثعالبي، فقد قصد به الأخير دراسة الألفاظ اللغوية وعلاقات بعضها ببعض، فيما يشبه عمل الرسائل اللغوية، ولم يتناول قضايا عامةً في حياة اللغة وتطورها، من مثل ما فعل ابنُ فارس في أبواب كتابه الأولى.

هذا إن اعتمدنا على أنَّ ما ورد في عنونة الكتاب هو كلمتا (فقه اللغة) فقط، أما عند الاعتماد على ما ورد عند بعضهم من زيادة كلمة (العربية)، ليكون العنوان (فقه اللغة العربية)؛ اعتمادًا على ما أورده ابن فارس في مقدمة الكتاب، فتكون دلالة مصطلح (فقه اللغة) واضحةً ومنضبطةً على دراسة لغة بعينها، ويوافق ذلك ما ذهب إليه المحدثون في تناولهم لعلم (فقه اللغة) بمنظوره الحديث.

القيد الثالث: عبارة (سنن العرب في كلامها):

ورد في اللغة أنَّ ((السَّنَن: الطريقة، يقال: استقام فلان على سَنَنٍ واحدٍ، ويقال: امض على سَنَنك وسُنَنك، أي: على وجهك..)) [١]

وأوردتُ من قبل أنه مما يُعتقد أن ابن فارس يقصد بفقه اللغة القضايا العامة التي تُسَيِّر حياةَ اللغة، ((أما سنن العربية فهي القوانين التي تسير وفقها الاستعمالات اللغوية، على النحو الذي يظهر في عرضنا للمادة اللغوية في الكتاب)) [٢]

---

١) تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (س. ن. ن) الجوهري، تح: أحمد عبد الغفار عطار, طبعة خاصة على نفقة السيد حسين الشربتلى، ثانية ١٩٨٢.

٢) فقه اللغة في الكتب العربية (٤٤).

ولعل مما يدخل تحت عنوان سنن العرب في كلامها أو استعمالاتها اللغوية، الدالة على طريقة أدائها والتفنن فيها، ما يلي:

- باب أقسام الكلام.
- باب الفعل.
- باب الحرف.
- باب الباء.. إلخ.

ولم ترد كلمة (السنن) في عنوان باب من أبواب (الصاحبي) سوى بابٍ واحدٍ سمَّاه ابنُ فارسٍ: (سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز)، لكنّ هناك تسميات اقتربت من ذلك، من مثل تسمية: (باب ما يجري في كلامهم مجرى التهكم والهزء)، وكذلك من الأبواب ما بدأها بقوله: ومن سنن العرب كذا، من مثل ما صدَّر به (باب القلب)، و(باب الإبدال) و(باب الجمع يراد به واحد واثنان)، و(باب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع).. إلخ[1]

وذلك في محاولة منه لربط أبواب كتابه بالهدف العام الذي تندرج تحته، وهو هنا بيان سنن العرب في الكلام.

❁ ❁ ❁

١) ينظر: الصاحبي (٣٢٩)، (٣٣٣)، (٣٤٩)، (٣٥٣).

العتبة الثانية: مقدمة الكتاب

تعد مقدمةُ الكتاب من عتباته المهمَّة، وهي عبارة عن ((مقال يقدِّم به المؤلِّف أهمَّ المبادئ والمناهج التي سيقوم عليها مؤلَّفه في ما بعد.)) (١)

وتتأتى أهمية المقدمة من حيث إنَّ المؤلِّف يضمِّنها تلك المعلومات التي لم يستطع توضيحها في عنوان الكتاب؛ نظرًا لطبيعة العناوين من الاختصار والإيجاز من ناحية؛ ولوجود عديدٍ من الأمور التي يريد المؤلِّف أن يقف قارئُ كتابه عليها قبل الشروع في القراءة والمطالعة لأبواب وأجزاء كتابه. وبهذا تكون المقدمةُ مدخلًا أوسع من العنوان لفهم مضامين الكتاب، ومقاصد تأليفه وغيرها من العناصر.

وقد وضع ابنُ فارس مقدمةً موجزةً لكتابه لم تتجاوز الصفحات الثلاث، ويبدو أن هذه عادته في كثيرٍ من مؤلفاته ومصنفاته، وبحسبنا أنْ نطلع على مقدمة معجم (مقاييس اللغة) تلك التي لم تتجاوز الصفحات الثلاث أيضًا، وكذا مقدمة (المجمل في اللغة) ذات الصفحة ونصف الصفحة، والمختصر الذي وضعه في المذكر والمؤنث فلم تتجاوز مقدمته الصفحتين.

هذا من جانب شكل المقدمة أما من جانب المضمون فنوضح أوَّلًا أنَّه بحسب ما ذكره حاجي خليفة في صدارة (كشف الظنون) فهناك رؤوس ثمانية جرت العادة على ذكر المصنفين لها في صدر كل كتاب (مقدمته)، هي:

١. **الغرض**، وهو الغاية السابقة في الوهم، المتأخرة في التأليف. (ويعني بذلك الفكرة التي يبدأ بها المؤلف ويحققها في التأليف).

---

١) عبقرية التأليف العربي: علاقات النصوص والاتصال العلمي (١٧٣)، د.كمال نبهان، طبعة الوعي الإسلامي- الكويت، الطبعة الأولى (الإصدار المائة) ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.

٢. **المنفعة**، ليتشوق الطبع، (أي لإثارة اهتمام القارئ).

٣. **العنوان** الدال بالإجمال على ما يأتي تفصيله.

٤. **الواضع** (أي المؤلِّف أو المصنِّف)؛ ليعلم قدره.

٥. **نوع العلم**، وهو الموضوع ليعلم مرتبته، وقد يكون الكتاب مشتملًا على نوع ما من العلوم، وقد يكون جزءًا من أجزائه، وقد يكون مدخلًا.

٦. **مرتبة ذلك الكتاب**، (أي متى يجب أن يقرأ، وهل هو للمبتدئين أم للمتخصصين في المجال؟).

٧. **ترتيب الكتاب**، (بالنسبة لكتب أخرى تقرأ قبله أو بعده في مراحل التعليم ومستوياته.)

٨. **نحو التعليم المستعمل فيه**، وهو بيان الطريق المسلوك في تحصيل الغاية.(ويعني الأسلوب التعليمي الذي اتبعه المؤلف لتحقيق الغرض من الكتاب.) [(١)]

وبتطبيق هذه العناصر على ما أورده ابن فارس في مقدمة (الصاحبي) نلاحظ مجيئه على كثير منها، وذلك على النحو الآتي:

- ألمح ابنُ فارس إلى الغرض الذي من أجله ألَّف كتابَه، وهو خدمةُ النصين القرآني والنبوي من خلال معرفة أصول كلام العرب.

- وكذلك ذكر بعض المنافع المتحصلة من وراء الاطلاع على كتابه، وذلك بعد أنْ بيَّن أنَّ لعلم العرب أصلًا وفرعًا وبيَّنهما قال: ((والناس في ذلك رجلان: رجل شغل بالفرع فلا يعرف

١) ينظر: عبقرية التأليف العربي (١٧٥، ١٧٦)، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٣٦/١)، حاجي خليفة، عني بتصحيحه والتعليق عليه: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.

غيره، وآخر جمع الأمرين معًا، وهذه هي الرتبة العليا؛ لأنَّ بها يعلم خطاب القرآن والسنة، وعليها يعول أهل النظر والفتيا..)) [١]

ثم بيّن أنَّ سر فهم بعض آيات القرآن الكريم ((لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشي من الكلام، وإنما معرفته بغير ذلك، مما لعلَّ كتابنا هذا يأتي على أكثره بعون الله تعالى)) [٢]

ولعل في ذلك تشجيعًا للقارئ أن يقف على مثل هذه الأصول التي تعينه على فهم كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم– فهمًا صحيحًا بفهم لغة العرب، والوقوف على أسرارها، وطرق العرب فيها.

- العنوان، ضَمَّن ابنُ فارس مقدمةَ كتابه عنوانَه، وعلل لسر هذه العنونة أيضًا، وكان من عادة ابن فارس في كثير من مؤلَّفاته إيراد العنوان في المقدمة، من مثل ما وجدنا في مقدمة معجم (المجمل في اللغة).

- نوع العلم، وقد أشار إلى ذلك، في أكثر من موضع من مقدمته، وذلك حينما ذَكَرَ العنوانَ بحسب ما ذكرتُ في الأسطر السابقة، وكذا بيانه أنَّ لعلم العرب أصولًا وفروعًا، فهو يريد بيان القضايا العامة لحياة اللغة، وطرق العرب في التعبير.

أما عن مرتبة الكتاب، وترتيبه بين الكتب الأخرى، والأسلوب التعليمي فلم يشر إليها ابنُ فارس في هذه المقدمة، وإنما أورد ما يمكن اعتباره مصادرَ الكتاب، وذلك في قوله: ((والذي جمعناه في مؤلَّفنا هذا مفرَّقٌ في أصناف [مصنَّفات] العلماء المتقدمين، رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء.)) [٣]

---

١) مقدمة الصاحبي (٣، ٤).

٢) مقدمة الصاحبي (٤).

٣) مقدمة الصاحبي (٥).

ومن المصنَّفات التي أورد اسمها داخل الكتاب: فصيح الكلام لثعلب، والمقتضب للمبرد.[١] إضافة إلى عديد من العلماء الذين نقل منهم، أو روى عنهم، مما هو متناثر داخل كتابه.

- ووضَّح حدودَ عمله في الكتاب بقوله: ((وإنما لنا فيه اختصارُ مبسوطٍ، أو بسطُ مختصرٍ، أو شرحُ مُشكَلٍ، أو جمعُ متفرقٍ)) [٢]

وهو بهذا القول يجمع في كتابه أربعًا من غايات التأليف، التي جمعها بعضهم فيما بعد بالقول: لا تخرج غايات البحث عن واحد من هذه الأمور: ((اختراع معدوم، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مختلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ.)) [٣]

ولا يفوتنا الإشارة إلى ما لاحظه بعضهم[٤] من التواضع الجم لابن فارس من خلال قوله السابق من أن ليس له فضل إلا الشرح والاختصار والبسط والجمع، والمطلع على كتابه لا يظهر بهذا فقط، وإنما يجد له جهدًا واضحًا ورؤى متعددةً، تنم عن علمه، وحسن فهمه وفقهه للعربية وقضاياها، على اختلاف المستويات اللغوية المتعددة.

كما لا يفوتنا هنا بيان ما لهذه المقدمة من أهميةٍ كبيرةٍ أغرتْ السيوطيَّ أن يُضَمِّنَ جزءًا كبيرًا منها مقدمةَ كتابِه (المزهر)، متمثلًا بما جاء في آخرها. ولك أنْ تتخيل هذا الكمَّ الكبيرَ من

---

١) ينظر: الصاحبي (٦٨، ٩١).

٢) مقدمة الصاحبي، الصفحة السابقة نفسها.

٣) قواعد التحديث (٣٧) محمد جمال الدين القاسمي. تح. مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط أولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٤) ينظر: القضايا المعرفية في كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس (٧) فاطمة بنت عبد الله بن حسن محيميد، جامعة الملك سعود. د. ت.

المصادر التي استُقيت منها مادةُ هذا الكتاب، إلا أنَّ الرجل لم يجد أفضل من هذه المقدمة ليصِّدر بها كتابَه قائلًا: ((.. وقبل الشروع في الكتاب نصدر بمقالة ذكرها أبو الحسين أحمد بن فارس في أول كتابه فقه اللغة... وبمثل قوله أقول في هذا الكتاب، وهذا حين الشروع في المقصود بعون الله المعبود.)) [١]

❁ ❁ ❁

١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها (٤/١) للسيوطي، عناية: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مكتبة الإيمان، مصورة عن نسخة دار التراث– القاهرة، ط أولى، د. ت.

العتبة الثالثة: عنوانات أبواب الكتاب

تأتي هذه العتبةُ الثالثةُ المبنيةُ على عنوانات أبواب كتاب (الصاحبي) لتتعاضد مع العتبتين السابقتين في الكشف عن جوانبَ عديدةٍ من مُراد ابنِ فارس من تأليفه هذا الكتاب، وتوضح فلسفة معماريته وهيكله الأساس.

عَقدَ ابنُ فارس كتابَه على ثمانيةٍ وخمسين ومئةِ بابٍ – بحسب تحقيق السيد صقر– صَدَّرَ معظمَها بمصطلح (باب)، وقد وضع لكل بابٍ من هذه الأبواب عنوانًا يلخص مراده منه، وسأفحص هذه العنوانات معتمدًا على المحاور الآتية:

أولًا– الانتماء المعرفي لعنوانات الأبواب:

أعني بالانتماء المعرفي لهذه الأبواب ما تحيل إليه من المجالات المعرفية أو علوم اللغة على وجه الخصوص، فمن هذه العنوانات ما يتعلق بمجالات أخرى تأثر ابنُ فارس بها في اختيار المصطلحات المشكِّلة لعنوانات هذه الأبواب، ومن ذلك تأثر عنوانات الأبواب بالعلوم الآتية:

- **النحو**، من مثل عنونة: باب في أقسام الكلام، باب النعت، باب إضمار الحروف، باب الفصل بين الفعل والنعت.. إلخ.
- **الصرف**، من مثل عنونة: باب الإبدال، باب القلب، باب التعويض.. إلخ.
- **البلاغة** من مثل عنونة:باب الاستعارة، باب الكناية، باب التقديم والتأخير.. إلخ.
- **الأدب**، من مثل عنونة: باب الشعر.
- **الفقه**، من مثل عنونة: باب الإعارة.

وقد بيَّن د. عبد الراجحي أنَّ الهيكل العام للكتاب يقوم على مجموعة من المسائل التي هي أبواب عديدة: مسائل عامة في حياة اللغة وتطورها، ومسائل صوتية، ومسائل صرفية، ومسائل نحوية، ومسائل دلالية، ومسائل أسلوبية، ومسائل بلاغية. ويضيف: ((على أنه من الواضح أن معظم مسائله متداخلةٌ تداخلًا شديدًا، بحيث يصعب فصل كل موضوع عن

الآخر، وتلك كانت سمة العصر التي تميز منهج القدماء في التأليف، أو فقدان المنهج كما يقولون.)) [١]

إنَّ تأثر ابنِ فارس في صياغةِ عنوانات أبوابه بالعديد من المجالات المعرفية لينبئ عن أمرين:

الأول: تلك الموسوعية التي امتاز بها ابن فارس من خلال سعة اطلاعه، وهو ما يَظهر بشكلٍ واضحٍ عند النظر إلى قائمة مؤلَّفاته، التي تحيل إلى مجالاتٍ متعددةٍ، كالتفسير، والفقه، والنحو، والعروض، والمعاجم، وغيرها.

الثاني: نظرة علمائنا القدامى لتكامل العلوم، وأنَّ التخصص في مجال بعينه لا يعدو أن يكون خطًا وهميًّا غيرَ فاصلٍ بينها فصلًا حقيقيًّا، فمن أين يفهم النحويُّ معاني النحو إلا بمزجه بمبادئ علم البلاغة، وكيف للفقه أن يستغني عن اللغة، وقد قرر ابنُ فارس نفسُه ذلك في صدارة (باب القول في حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية)، في قوله: ((إنَّ العلم بلغة العرب واجبٌ على كل متعلقٍ من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسببٍ، حتى لا غناء بأحد منهم عنه، وذلك أنَّ القرآن نازلٌ بلغة العرب، ورسول الله- صلى الله عليه وسلم- عربيٌّ، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله - جل وعز- وما في سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من كل كلمة غريبة، أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بُدًّا.)) [٢]

---

١) فقه اللغة في الكتب العربية (٤٧).

٢) الصاحبي (٥٠).

ثانيًا– تأثير عنوانات أبواب (الصاحبي) على اللاحقين له:

لقد وجدتْ عنواناتُ أبواب (الصاحبي) صدى كبيرًا لدى بعض اللاحقين له، ممن وجدوا فيها مصدرًا مهمًّا من مصادر صياغة عنوانات أبواب كتبِهم، وذلك على نحو ما وجدنا عند السيوطي في (المزهر)، فقد صاغ بعض عنوانات أبواب كتابه في ضوء ما ورد عند ابن فارس، ومن ذلك تسميته النوع السادس عشر: (معرفة مختلف اللغة)، وذلك في ضوء عنوان: (باب القول في اختلاف لغات العرب) الوارد في الصاحبي[١] **(٤٥)**، وكذلك تأثر السيوطي في تسمية النوع العشرين: (معرفة الألفاظ الإسلامية)، بما ورد في الصاحبي من تسمية: (باب الأسباب الإسلامية) [٢] وكذا النوع الثامن والعشرون: (معرفة الإتباع) والباب ورد بالاسم نفسه عند ابن فارس.[٣]

وكذلك نقل الثعالبيُّ أبوابًا؛ عنوانًا ومادةً من (الصاحبي) على نحو ما نجد في:

- فصل في النحت.
- فصل في الإشباع والتوكيد.
- فصل في إضافة الشيء إلى مَن ليس له، لكن أضيف إليه؛ لاتصاله به.[٤]

---

١) ينظر: الصاحبي (٢٨)، والمزهر (٢٥٥/١).

٢) ينظر: الصاحبي (٧٨)، والمزهر (٢٩٥/١).

٣) ينظر: الصاحبي (٤٥٨)، والمزهر (٤١٤/١).

٤) ينظر: فقه اللغة وأسرار العربية (٤٣٢وما بعدها).

إنَّ ذلك وغيره مما تأثر به اللاحقون يدل على المكانة الكبيرة والمنزلة العالية التي حازها (الصاحبي) في نفوسهم، مما جعلهم ينقلون عنه، ويقتبسون منه، ولا يجدون غضاضة في ذلك؛ فهو من كتب فقه اللغة المقدَّمة.

ثالثًا– عنونة الأبواب بين (الصاحبي) و (الخصائص):

لاشك أن هناك تلاقيًا فكريًّا بين ابن فارس وابن جني؛ من حيث إيرادهما كثيرًا من القضايا اللغوية، والنحوية وغيرها، لكنَّ المقارنةَ العجلى لعنوانات الأبواب بين الكتابين تُظهر فارقًا كبيرًا بينها، يتضح ذلك الفارق باتكاء ابن جني بشكل واضح في عنوانات أبواب كتابه على مصطلحات علم الكلام والمنطق وأصول الفقه.

يقول د. فاضل السامرائي: ((ولو تابعنا العناوين التي يصدر بها بحوثه في كتاب (الخصائص) لكفانا ذلك مؤونة البحث عن التشابه بينها، فهي مأخوذة من أصول الفقه ومن علم الكلام والمنطق، فهو يتكلم عن علل العربية أكلامية هي أم فقهية، والعلل الموجبة والمجوزة، ويتكلم عن الاستحسان، وفي تخصيص العلة، وتعارض العلل، والعلل القاصرة، والعلة وعلة العلة، ودور الاعتلال، والمعلول بعلتين، والحكم يقف بين الحكمين، وخلع الأدلة.. ونحو ذلك. فتتبع العناوين وحدَها يدلك على أثر الفقه، وعلم الكلام، والمنطق في بحثه.)) [١]

أما صنيع ابن فارس فهو مستمدٌ من النظرة اللغوية المحضة، بعيدًا عن علم الكلام، والمنطق، وغيرها من العلوم المعتمدة على العقل والتعليل، وبيان فلسفة القواعد والمسائل المدروسة، أو يمكن القول إن (الصاحبي) صورةٌ معبرةٌ عن رواية اللغة عن رواتها ونقلتها، أما

١) ابن جني النحوي (١٤٣) د. فاضل السامرائي، دار النذير، ١٣٨٩هـ– ١٩٦٩م.

(الخصائص) فهو كتاب دراية للغة يبين فلسفتَها وتعليلَها تعليلًا منطقيًّا، لما ورد عن الأعراب والعلماء من قبله.

ومن الملاحظ أيضا تفرد كل واحد من العالمين الكبيرين برؤيةٍ مختلفةٍ، ومعالجة مستقلة للمسألة الواحدة، ولعل ذلك يتضح بالموازنة بين العناوين الآتية:

ابن فارس	ابن جني
باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟	باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح؟
باب القول في أفصح العرب/ باب اللغات المذمومة.	باب اختلاف اللغات وكلها حجة.

في **العنوان الأول** يتناول الشيخان مسألة نشأة اللغة الإنسانية، لكني ألاحظ قَصْرَ ابنِ فارس المسألةَ على العربية، لكنَّ ابن جني جعلها مسألةً عامةً، تخص اللغة بوجه عام، بعيدًا عن كونها العربية أو غيرها.

ولعل ذلك يدلنا على أنَّ ابن فارس يعد اللغة العربية أصلَ اللغات، وهو حبٌّ للعربية، ليس بمستغربٍ على الرجل، فقد ظهر ذلك واضحا في كثير من مصنَّفاته.

أما عمل ابن جني فهو ينطلق انطلاقًا من فكرة اللغة الإنسانية بوجه عام – والرجل محب كذلك للعربية– فكثيرًا ما يلجأ إلى هذه النظرة العامة، ولعل الحدّ الذي وضعه للغة يدل على ذلك، حيث ذكره تعريفًا للغة بوجه عام، وهو ما التقطه ابن سيده، فقال في مقدمة (المخصص): ((.. فإذ قد بيَّنا ما اللغةُ أمتواطَأ عليها أم موحًى بها، ومُلهَم إليها، فلنقل على حدِّها، وهو عامٌّ لجميع اللغات؛ لأنَّ الحدَّ طبيعيٌّ...))[١]

١) المخصص (٦/١) ابن سيده، دار الكتب العلمية– بيروت، دون بيانٍ لطبعة أو تاريخها.

فهناك اختلاف بين نظرة العالِمين للغة الإنسانية المتحدث عن أصل نشأتها، فربطها ابن فارس بالعربية، بينما جعلها ابنُ جني- في أغلب حديثه- عامةً، وظهر ذلك بشكل واضح في عنونة البابين عندهما.

وفي **العنوان الثاني** يدرس الشيخان مسألة اختلاف لغات العرب مع الإقرار بفصاحة لغة قريش وعلوها عنهن جميعًا.

فأما لغة قريش فقد أقر الرجلان بأنها الأفصح، وضَمَّن ابنُ فارس ذلك عنوانَه.

وأما النظرةُ إلى لغات العرب الأخرى، فقد اختلفوا فيها، فبينما رأى ابن فارس في عنوان الباب التالي له أنها لغات مذمومة، ورآها ابنُ جني كلَّها حجةً، ووضع ذلك صراحةً في عنوان الباب، ثم ختمه بقوله: ((وكيف تصرف الحال، فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيبٌ غيرُ مخطئٍ، وإن كان غير ما جاء به خيرًا منه.)) [(١)] وهكذا فقد عكستْ عنونةُ الأبواب ما يراه كلا الرجلين في المسألة، أو المسائل المتضمنة فيه، مما يدل على أهمية عنونة الأبواب، ومراعاة الدقة فيها، وهو ما أجاده كلا العالمين.

رابعًا- صياغة عنوانات الأبواب:

يحرص مؤلفو الكتب العلمية في صياغة كثيرٍ من عنوانات أبوابها على بعض الأساليب اللغوية التي تحمل جانبًا من تشويق القارئ إلى مطالعة المعلومات الواردة فيها، والتي قد تحوي جانبًا من المبالغة والتهويل، في حين نجد آخرين يضعون عنوانات للأبواب يعتمدون فيها على الدقة التي تتناسب مع نوعية مصنفاتهم، وقد تبرز مهارة المؤلف أو المصنِّف في مراعاة الجانبين:

١) الخصائص (١٢/٢) لابن جني، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.

الدقة والتشويق في الآن ذاته، وهكذا استطاع ابنُ فارس – في الأغلب– الاعتماد على مثل هذه الصياغات في إبراز عنوانات أبواب كتابه، أذكر منها:

- العنونة الاستفهامية، من مثل:
  - باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟
  - باب القول على أن لغة العرب هل يجوز أن يحاط بها؟
  - باب القول على لغة العرب هل لها قياس؟ وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟
  - باب الأسماء، كيف تقع على المسميات؟

ويبدو أن سبب استعمال أسلوب الاستفهام في العنونة ينبع من إرادة المؤلِّف جذبَ القارئ، وإحداث نوع من التشويق لديه لمعرفة مضمون الباب، وإثارة الأفكار لديه حول الإجابة عن هذه الأسئلة، أو إحداث نوع من العصف الذهني لما عند القارئ من معلومات، قبل الوقوف على ما سيورده المؤلَّفُ.

- العنونة الخبرية:

في مقابل النوع السابق من العنونة المعتَمَد فيه على طرح الأسئلة للتشويق، تأتي بعض العنوانات في ثوب تقريري، يحمل قناعةَ المؤلِّف حول المسألة المطروحة، وأنَّ موضوع الباب ليس قابلًا للنقاش، أو اختلاف الآراء، على سبيل المثال، ويبدو ذلك بشكل أوضح في تطعيم بعض العنوانات بأدوات التأكيد (أن) ونظائرها.

ونجدُ هذا الاتجاه أيضًا في العنوانات المصوغة في ثوب الأسئلة، ذلك أنَّ ابن فارس لا يدع في معظمها مجالًا للنقاش، وإنما يحسم الإجابة من أول الباب، من مثل ما وجدنا في

إجابته عن السؤال الوارد في العنوان الأول في كتابه (باب القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح؟)، وذلك بقوله: ((أقول: إن لغة العرب توقيفٌ.)) [١]

ومن العنوانات الخبرية الواردة في (الصاحبي):

- باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها.
- باب القول في حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية.
- باب ذكر ما اختصتْ به العربُ.
- باب معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء.

- التفاوت بين إيجاز بعض العنوانات والإطالة في بعضها، فمما جاء موجزًا:

- باب الفعل.
- باب النعت.
- باب القلب.
- باب الإبدال.
- باب القبض.
- باب المحاذاة.

ومما جاء منها مُطوَّلًا:

- باب القول في اللغة التي نزل بها القرآن، وأنه ليس في كتاب الله – جل ثناؤه– شيءٌ بغير لغة العرب.

- باب القول على أن لغة العرب لم تنته إلينا بكليتها، وأنَّ الذي جاءنا عن العرب قليلٌ من كثيرٍ، وأنَّ كثيرًا من الكلام ذهب بذهاب أهله.

---

١) الصاحبي (٦).

- باب جمع شيئين في الابتداء بهما وجمع خبريهما، ثم يرد إلى كل مبتدأ به خبره.
- باب مخاطبة المخاطب ثم يجعل الخطاب لغيره أو يخبر عن شيء ثم يجعل الخبر المتصل به لغيره.

ويبدو أن ضبط عنونة الأبواب وملمة أطرافها وحبكها والتنمق في صياغتها، أو وضع المصطلحات المختصرة المعبرة عنها، لم يكن المهيمن على عقلية المؤلِّفين الأوائل المؤسِّسين، بقدر هيمنة المادة المتضمنة داخل الكتاب، وهذا نفسه ما جعل سيبويه لا يتجه ((إلى التسمية ووضع المصطلحات، ولكنه يصف المسميات ويعبر عن الخصائص التي تدل عليها وتميزها من سواها... وكان من أثر ذلك أن طالت العنوانات..)) [(١)]

- الاعتماد على التقابل اللفظي؛ للدلالة على الشمول والاستقصاء، ومن عنوانات الأبواب التي ظهرتْ فيها هذه التقنية:
  - باب أجناس الكلام في الاتفاق والافتراق.
  - باب الفعل يأتي بلفظ الماضي وهو راهن أو مستقبل، وبلفظ المستقبل وهو ماضٍ.
  - باب الأوصاف التي لم يسمع لها بأفعال، والأفعال التي لم يوصف بها.

خامسًا– الإحالة على عنوانات الأبواب:

وجدنا ابنَ فارس يحيل في مواضع من (الصاحبي) على عنوانات بعض الأبواب، سواء في ذلك ما ذكره داخل أبواب أخرى، أو ما ضمنه عنوانات أبواب أخرى.

وهو نوع من التماسك التأليفي، يربط المؤلِّف من خلاله المعلومات بعضها ببعض، وإعطاء القارئ صورةً شاملةً لما يقرأه، من غير تكرارٍ لما يقول.

ومن مواضع الإحالة على عنوانات الأبواب داخل أبواب أخرى:

---

١) سيبويه إمام النحاة (١٧٤، ١٧٥) على النجدي، عالم الكتب– القاهرة، ط ثانية، ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م.

- في (باب اللغات المذمومة) أحال على باب آخر، ذاكرًا عنوانه بقوله: ((ولكن هذه لغات للقوم على ما ذكرناه في باب اختلاف اللغات.)) [١]

ومن الملاحظ على تلك الإحالة أنه قد غيَّر في عنوان الباب وأصله (باب القول في اختلاف لغات العرب) [٢]؛ مما قد يدلنا على اعتماده في هذه الإحالة على الذاكرة لا على النقل، أو على وضعه عنوانات الأبواب في صورتها النهائية بعد الانتهاء من الكتاب.

ولعل ما يرجح ذلك أن الإحالات التي عثرتُ عليها داخل الكتاب كانت (إحالات تقدمية) بمعنى الإحالة على باب سابق، وخلوه من الإحالات على باب لاحق، على نحو ما نجد في كتاب (الخصائص) على سبيل المثال. [٣]

- في (باب ما يكون بيانه مضمرًا فيه) أحال على باب آخر، ذاكرًا عنوانَه بقوله: ((وهذا هو الذي يسمى في سنن العرب (باب الكف) وقد ذُكرَ.)) [٤]

وهنا ملاحظةٌ مهمة لابد من إثباتها، أنه في ترتيب الكتاب الحالي أتى (باب الكف) بعد (باب ما يكون بيانه مضمرًا فيه)، وهو ما يناقضُ عبارة (وقد ذُكرَ) التي ضبطها المحققُ هكذا دون التوقف أمام ذلك التناقض بالتنبيه عليه أو فك غموضه.

---

١) الصاحبي (٣٨).

٢) الصاحبي (١٨).

٣) ومن ذلك قول ابن جني في (باب في تداخل الأصول الثلاثية والرباعية والخماسية): ((وسنذكر ذلك في باب سقطات العلماء بإذن الله.)) ينظر: الخصائص (٢/٥٠) و (٣/٢٨٢).

٤) الصاحبي (٤٠١).

وزيادة في التثبت فقد عدتُ إلى طبعة المكتبة السلفية، وكذلك طبعة مكتبة المعارف بتحقيق د. عمر الطباع، فوجدت النصَّ نفسَه والضبطَ ذاتَه، دون التوقف أمام ذلك؛ تعليقًا أو نقدًا؛ مما دلني أن النصَّ هكذا في نسخ المخطوط نفسه.

وهذا كله يجعلني أتساءل: أأعاد ابنُ فارس ترتيبَ بعض الأبواب فقَّدم وآخر، وصدَّر وختم، أم أن العبارة ناقصةٌ وكمالها (وقد ذُكِرَ في موضع لاحق)، أم أنه وهمٌ من ابن فارس أنه ذكر الباب من قبل، وعند تناوله إياه لم ينتبه إلى الإحالة إليه في باب سابق؟

ومما أوقعني في الحيرة والتساؤل مرةً أخرى أنه تمت قراءة الكتابِ وتصحيحه على الشيخ ابنِ فارس، بحسب ما أثبته محققُ (الصاحبي) فقد جاء بهامش إحدى النسخ بقلم رفيع بخط نوح بن أحمد اللوباساني ما نصه: ((فرغ نوح بن أحمد من قراءة هذا الكتاب وتصحيحه على الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس، في يوم الاثنين تاسع شعبان من شهور سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، وسمع بقراءته: أبو العباس أحمد بن محمد، المعروف بالغضبان، وأبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة القاري، وصلى الله على محمد وآله أجمعين.

وفي أسفل الصفحة بخط مغاير: سمع أبو الحسن: علي بن أحمد يقرأ على الشيخ الفاضل: أبي الحسين من أوله إلى آخره بعد الإجازة.

وبجوار ذلك بخط آخر: عارض علي بن أحمد السرخاباي نسخته بهذه النسخة من أولها إلى آخرها، بحمد الله وتوفيقه)) [(١)]

ومصدر الحيرة أنَّ الكتاب تمت قراءته، وسماعه، والسماع بسماع الغير، ومعارضة إحدى نسخه، مما يدل على العناية الكبيرة التي لقيها الكتابُ في حياة ابن فارس نفسه، ويبدو لي – والله أعلم– أن الوهم وقع من قراءة الكتاب على ابن فارس، وعدم مطالعته إياه مما لم يرد خبرٌ

١) الصاحبي (٤٧٢) هامش (١).

به، ومن المعروف أن السماع ليس كالمطالعة، لكون السماع موطنًا واسعًا للوهم، ولعل الإحالة كانت في إحدى هذه القراءات دون فطنة إلى تأخر ما يحال عليه، أو أن ابن فارس أعاد ترتيب بعض الأبواب أثناء هذه القراءة.

- في (باب الحمل) أحال على بابٍ آخر، بقوله: ((وقد ذُكِر في هذا الباب ما تقدم ذكره من قوله جل ثناؤه (مستهزئون، الله يستهزئ بهم) وهذا في باب المحاذاة أحسن.)) [١]

ومن مواضع الإحالة على عنوانات الأبواب داخل عنوانات أبواب أخرى:

- فعنوان (باب آخر في الأسماء) فيه إحالة إلى باب (الأسباب الإسلامية) الذي سبق ذكره من قبل، ويربط ابن فارس بين البابين في صدر الباب اللاحق منهما، بقوله: ((قد قلنا فيما مضى ما جاء في الإسلام من ذكر المسلم، والمؤمن، وغيرهما..)) [٢]
- عنوان (باب شرح جملة تقدَّمت في ألفات الوصل) [٣] فيه إحالة إلى الأبواب السابقة عليه التي ورد في أثنائها الحديثُ عن ألفات الوصل، ومن الواضح من العنوان أنَّ علاقة هذا الباب بالأبواب المحال إليه هو إرادة الشرح والتفصيل لما أُجْمِلَ من قبلُ.
- عنونَ ابنُ فارس بعضَ أبوابه بـ(باب آخر) [٤] وفي ذلك إشارة إلى أن هناك بابًا سابقًا محالًا إليه، وهو في المواضع التي معنا الباب السابق عليه في الأغلب.

---

١) الصاحبي (٤٢٦) وينظر: نفسه (٣٨٤).
٢) الصاحبي (١٠١) وينظر: نفسه (٨٣، ٨٤).
٣) ينظر: الصاحبي (١٢٩).
٤) ينظر: الصاحبي (٣٥١ و ٣٥٤ و ٣٦٨).

سادسًا– بنائية أبواب (الصاحبي) كما يبدو من عنواناتها:

إن المطلع على بنائية كتاب (الصاحبي) ليلاحظ بشكلٍ واضحٍ اعتماد ابن فارس على التبويب من خلال إطلاق كلمة (باب) في صدر كلِّ مسألة منها، في محاولة لتمييزها عما عداها، أو بيان حدود المسألة المدروسة، وكذا إقامة بنائية الكتاب على تسلسلٍ واضحٍ بواسطة ذلك التبويب.

ومن الملاحظ كذلك أن هذه الأبواب انتظمتْ في موضوعات أساسية ثلاثة:

القضايا العامة، التي تشمل الحديث عن: نشأة اللغة، ومسألة الخط وأول من كتب به، وأفضلية اللغة العربية على سائر اللغات، واختلاف اللهجات .. إلخ ويمكن إدراج تلك الأبواب تحت ما سماه ابن فارس (فقه اللغة).

الحديث عن ما يخص الحروف والكلمات، فأورد أقسام الكلام، والفعل، والحرف، والنعت، وحروف المعاني.. إلخ

الحديث عن ما يخص المعاني التركيبية، من حيث الخبر والاستخبار، والخطاب والغيبة، والإطلاق والتقييد، والحقيقة والمجاز.. إلخ وإنْ كنا نلاحظ إقحام أبواب تختص بالكلمات لا بالجمل، كالقلب والإبدال.

ثم تأتي خاتمة الحديث بباب عن الشعر، لكنه ليس كلامًا عن الشعر ذاتِه، وإنما يربطه ابنُ فارس بالهدف الأساس من تأليف كتابه من حيث إعانة القارئ على فهم كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم– فهمًا صحيحًا، ومن داوعي هذا الفهم تمييزُ كلام الله — عز وجل– عن التقفية والوزن مما يمتاز به الشعر؛ تمييزًا لهذا الكتاب العزيز.

ومما يدل على بنائية أبواب الصاحبي، وتسلسلها، وترابطها، ما وجدناه من علاقات عديدة – داخل الموضوعات الأساسية السابق ذكرها– بين أبواب الكتاب، منها:

- ✓ الانتقال من العموم إلى التخصيص، في مثل :

- باب أقسام الكلام.
- باب الفعل.
- باب الحرف.
- باب أجناس الأسماء.

وكذلك مثل:

- باب الإضمار.
- باب إضمار الحروف.
- باب إضمار الأفعال.
- باب من الإضمار آخر.

✓ الانتقال من المقابِل إلى مقابِله، في مثل:

- باب البسط في الأسماء.
- باب القبض.

وكذلك:

- باب تحويل الخطاب من الشاهد إلى الغائب.
- باب تحويل الخطاب من الغائب إلى الشاهد.

✓ الانتقال من باب إلى ما يكمله أو يناظره:

- باب من إضمار الأفعال.
- باب من الإضمار آخر.

وكذلك:

- باب الكناية.
- باب الثاني من الكناية.

فمن الواضح أن هذه العلاقات المتعددة بين الأبواب ربطتْ بينها وجعلتها كيانًا واحدًا يخدم الفكرة التي يريد المؤلِّف إيصالها، وهي هنا تنقسم إلى ما يخص فقه اللغة بالحديث عن حياة اللغة وما يتعلق بها من قضايا عامة، وما يخص السنن التي اتبعها العرب في كلامهم، فكل هذه الأبواب تخدم هذين القسمين الكبيرين.

سابعًا– تساؤلات حول عنوانات بعض الأبواب:

أردتُ في هذه السطور إبداء تساؤلين أراهما مهمين حول عنوانات بعض أبواب (الصاحبي):

التساؤل الأول: ورد في (باب معاني الكلام) ما نصه: ((وهي عند بعض أهل العلم عَشَرَة: خبر، واستخبار، وأمر ، ونهي، ودعاء، وطَلَب، وعَرْض، وتحضيض، وتمن، وتعجب.)) [(١)] وتلا ذلك باب عن الخبر، وآخر عن الاستخبار، وثالث للأمر، ثم أورد بعده بقية معاني الكلام دون إفراد باب لكل منها.

والسؤال هنا: لماذا لم يفرد لكل من هذه المعاني السبعة بابًا خاصًّا به؟

وأرى – والله أعلم– أنَّ هذه السبعة لم تنل من الأهمية ما نالته المعاني الثلاثة الأولى، والحديث فيها مبسوطٌ في كتب النحو والصرف بقدر يجعل من ذكره إياها هنا تكرارًا غير ذي فائدة من وجهة نظره، خصوصًا أنه لم يُطل الحديث في كلٍّ منها، فقد ذكر في النهي والدعاء والطلب — على سبيل المثال– هذه الأسطر المعدودة التي تحوي بيانًا للتركيب واستشهادا عليه، وذلك في قوله: ((فأما النهي فقولك: لا تفعل، ومنه قوله:

لا تنكحي إنْ فرَّق الدَّهرُ بيننا أَغَمَّ القفا والوجهِ ليس بأنْزعا [(٢)]

---

١) الصاحبي (٢٨٩).

٢) نسبه محقق الصاحبي لهُدبة بن خشرم العُذري ووثقه في الهامش رقم ٤ ص (٣٠٢).

وأما الدعاء والطلب فيكون لمن فوق الداعي والطالب، نحو: اللهم اغْفر، ويقال للخليفة: انظُر في أمري، قال الشاعر:

إليـــك أشكو فَتَقَبَّل مَلَقِي واغفر خطاياي وثمِّر وَرَقِي[١]

والعرض والتحضيض متقاربان...))إلخ[٢]

التساؤل الثاني: عندما عنون (باب الخصائص) بهذا الاسم، ماذا كان يقصد بالخصائص؟ وهل يقترب معناه مما قصده ابن جني في تسمية كتابه، مما يمكن أن يكون سببًا قويًّا لاقتباس ابن جني تسميته من هذا الباب خصوصًا أن تأليف (الصاحبي) معاصرٌ لتأليف (الخصائص)، فقد ورد في هامش إحدى النسخ ((بقلم رفيع بخط نوح: فرغ نوح بن أحمد من قراءة هذا الكتاب وتصحيحه على الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس، في يوم الاثنين تاسع شعبان من شهور سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة..)) إلخ[٣] مما يدل على الانتهاء منه قبل ٣٨٢هـ، في حين انتهى ابن جني من كتابه ما بين عام ٣٧٩هـ وهو العام الذي تولي فيه بهاء الدولة الملكَ في بغداد، وقد أهدى ابنُ جني له الكتاب في مقدمته وعام ٣٩٢هـ سنة وفاة ابن جني، مما يدل على أن الكتابين أُلِّفَا في الفترة نفسِها.

يتضح بمطالعة باب الخصائص في (الصاحبي) أنه يقصد بها بعض الألفاظ التي تختص ببعض المعاني ولا تستعمل في غيرها، فيما يشبه (مبحث الخصوص) في الدراسات الدلالية الحديثة في مقابل (مبحث العموم) فيها، ومن أمثلته ((ولا يكون التأبين إلا مدح الرجل

١) نسبه محقق الصاحبي هذا الرجز للعجاج، ووثقه من ديوانه في الهامش رقم ٥ ص (٣٠٢).
٢) الصاحبي (٣٠٢، ٣٠٣).
٣) الصاحبي (٤٧٢) هامش (١).

ميتًا..))[١] أما ابن جني فإنه يقصد بالخصائص القوانين العامة التي تنتظم العربية.[٢] لا ما تختص به بعض الألفاظ من معان لا تتعداها كما أراد ابن فارس.

وبعد،،

فلعل هذه الوقفات لم تعط كتاب (الصاحبي) ولا صاحبه حقهما من الدرس والمعالجة، مُعتذرًا عن ما وقع فيه من نقصٍ أو سهوٍ، مما تقتضيه طبيعة الأعمال البشرية، مُستأنسًا في ذلك بقول القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وهو يعتذر إلى العماد الأصفهاني عن كلامٍ استدركه عليه: ((إنه قد وقع لي شيءٌ، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك أني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه، إلا قال في غَدِه: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر.))[٣]

ولكنَّ حسبي أنني ربما ألقيت حجرًا في ماءٍ راكدٍ كما يقال، ولعل هذه السطور تفتح بابًا واسعًا أمام الدارسين ليستخرجوا لآلئ (الصاحبي) الكامنة لا شك فيه.

والله من وراء القصد، وإليه المرجع والمصير.

❁❁❁

١) الصاحبي (٤٤٧).

٢) ينظر: فقه اللغة في الكتب العربية(٤١).

٣) كشف الظنون (١٨/١)، وينظر: أبجد العلوم (٧١/١) لصديق القنوجي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، ١٩٧٨م.

نتائج البحث

- أدى عنوان (الصاحبي) الوظيفة المرجعية (الإحالية) بإحالته إلى أحد المجالات المعرفية، ذلك المجال الذي شكَّل علمًا من العلوم، عُرف فيما بعد بـ(فقه اللغة).

- اعتمد ابن فارس كثيرًا على الوظيفة الإحالية في وضع عنوانات مصنَّفاته، فأحال إلى علم أصول الفقه إحالةً مباشرةً في تسمية كتابه (أصول الفقه)، وإلى علم التفسير في تسمية كتابه: (جامع التأويل في تفسير القرآن)، وإلى مجال المعاجم في عنونة معجميه: (المجمل في اللغة)، و(مقاييس اللغة)، وإلى النحو في (المحصل في النحو).

- امتاز عنوانُ كتاب (الصاحبي) بالطول النسبي، فقد أراد ابن فارس أن يشمل الموضوعات الكلية التي سيتناولها كتابه، أعني جانبي: فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، بالإضافة إلى دلالة إهدائه إلى الصاحب بن عباد.

- اشتملتْ مقدمة (الصاحبي) على كثير من الرؤوس التي جرت العادة على ذِكْر المصنفين لها في صدر كتبهم، فاشتملت على: الغرض من تصنيفه، وذكر بعض المنافع المتحصلة من قراءته، وعنوان الكتاب، ونوع العلم، وحدود عمله في الكتاب.

- تأثر ابنِ فارس في صياغةِ عنوانات أبوابه بالعديد من المجالات المعرفية، لتدل على موسوعية الرجل من جانب وإيلائه مبدأ تكامل العلوم أهمية كبرى من جانب آخر.

- تأثر العديد من العلماء اللاحقين على ابن فارس به في صياغة العديد من عنوانات أبواب كتبهم، كالثعالبي في (فقه اللغة وأسرار العربية)، والسيوطي في (المزهر).

- ينطلق ابن فارس في عنونة أبواب كتابه من النظرة اللغوية المحضة، بعيدا عن التأثر بعلم الكلام والمنطق وغيرها من العلوم المعتمدة على العقل والتعليل بحسب ما نجد في كثير من عنوانات (الخصائص) لابن جني.

- اعتمد ابن فارس في صياغة عنوانات أبواب كتابه على الدقة والتشويق في الآن ذاته، مستعملا بعض الأساليب، كالعنونة الاستفهامية، والخبرية، مع التفاوت في العنوانات بين الإطالة والإيجاز، والاعتماد على التقابل اللفظي.

- اعتمد ابن فارس على بنائية واضحة للكتاب، تظهر من خلال عنوانات أبوابه، معتمدا على التبويب من خلال إطلاق كلمة (باب) في صدر كل مسألة، وكذلك أقام هذه البنائية على تسلسل واضح بواسطة ذلك التبويب، منتقلًا تارةً من العام إلى الخاص، وتارةً من المقابِل إلى مقابِله، وأخرى من باب إلى ما يكمله أو يناظره.

❁ ❁ ❁

لائحة المراجع

- أبجد العلوم، لصديق القنوجي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق، ١٩٧٨م.
- إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، ط أولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م .
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، للفيروزآبادي، تح: محمد المصري، دار سعد الدين للطباعة والنشر- دمشق، ط أولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تح: أحمد عبد الغفار عطار, طبعة خاصة على نفقة السيد حسين الشربتلى، ثانية ١٩٨٢ .
- ابن جني النحوي، د. فاضل السامرائي، دار النذير، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م.
- الخصائص، لابن جني، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.
- دراسات لغوية في الصاحبي والخصائص والمزهر، د. أمين فاخر، ط ثانية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- سيبويه إمام النحاة، على النجدي، عالم الكتب- القاهرة، ط ثانية، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- الصاحبي، لابن فارس: تح. السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة.
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية- القاهرة، ١٣٢٨هـ- ١٩١٠م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف- بيروت، ط أولى، عام ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- عبقرية التأليف العربي: علاقات النصوص والاتصال العلمي، د.كمال نبهان، طبعة الوعي الإسلامي- الكويت، الطبعة الأولى (الإصدار المائة) ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
- فقه اللغة وأسرار العربية، للثعالبي، تح: د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية- بيروت، ط ثانية، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- فقه اللغة في الكتب العربية، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- القضايا المعرفية في كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس، فاطمة بنت عبد الله بن حسن محيميد، جامعة الملك سعود. د. ت.

- قواعد التحديث، محمد جمال الدين القاسمي. تح. مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط أولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، عني بتصحيحه والتعليق عليه: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.
- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة- دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، د. حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط أولى ٢٠٠٩م.
- المخصص، لابن سيده، دار الكتب العلمية- بيروت، دون بيانٍ لطبعة أو تاريخها.
- المذكر والمؤنث، لابن فارس، تح: د. رمضان عبد التواب، القاهرة، ط أولى، ١٩٦٩م .
- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، تح: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط أولى، ١٩٩٣م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات ابن الأنباري، تح: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار- الأردن، ط ثالثة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- النظرات، مصطفى لطفي المنفلوطي، مؤسسة هنداوي، ٢١٠٩م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي، تح. د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية- بيروت، ط أولى، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

المقدمة. ١٣٣٧
مدخل :ابن فارس ومؤلَّفه..... ..... ١٣٣٩
العتبة الأولى: عنوان الكتاب ١٣٤٢
العتبة الثانية: مقدمة الكتاب..... ١٣٥٣
العتبة الثالثة: عنوانات أبواب الكتاب ١٣٥٧
نتائج البحث..... ١٣٧٥
لائحة المراجع..... ١٣٧٧
فهرس الموضوعات..... ١٣٧٩